الحســـــن البصـــــري

(٦٢٤-٧٢٨م=٢١-١١٠هـ)

# الباحث عن العدل وناصح الملوك

obeikandl.com

وصفه خالد بن صفوان فقال: هو أشبه الناس سريرة بعلانية، وقولا بفعل، إن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهي عن شيء كان أترك الناس له، رأيته مستغنيا عن الناس، ورأيت الناس كلهم محتاجين إليه.

هو «الحسن البصري الحسن بن أبي الحسن أبو سعيد»، من أبرز العلماء المسلمين والمفكرين المصلحين، والساسة الزهاد في تراث أمتنا العربية الإسلامية وتاريخها، وهو أبرز علماء عصره على الإطلاق. وُلِدَ في المدينة عام ٢١هـ، وأقام في البصرة، وفيها توفى عام ١١٠هـ.

كان في الورع والتقوى آية ظاهرة، وكان في العلم بحرا زاخرا، وكان في الفصاحة والبيان علما مفردا، وكان أعظم الوعاظ في تاريخه كله.

بعض الوعاظ يتخذ الدين حرفة، والتقوى صناعة يأكلون بها الدنيا ويجمعون بها المال، يصلون إلى العامة باللفظ الجميل والمظهر الخداع والخشوع الكاذب يتكلمون من ألسنتهم لا من قلوبهم، لذلك منع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الوعاظ من دخول المسجد في البصرة، ولم يستثن إلا الحسن البصري.

## يتكلم من القلب:

لأنه كان يقول الحق، ويروي الحديث الصحيح، ولأنه كان يتكلم من قلبه، يزهد الناس في الدنيا وهو أول الزاهدين فيها، لا يزهدهم فيها، ليخالفهم إليها ويزاحمهم عليها، ولا يأخذ منهم هدية، ولا يتخذ جاهه وسيلة إلى الحظوة عند الملوك والقرب من السلاطين.

كان «الحسن البصري» حربا على علماء السوء الذين يدعون للآخرة ويطلبون الدنيا، قال فيهم قولة حق: «ما هؤلاء إلا قوم ملوا العبادة، وصعب عليهم العمل، وقل ورعهم، فوجدوا الكلام أهون عليهم، فتكلموا».

مر الحسن بباب الأمير ابن هبيرة، فإذا بالقراء على الباب فقال: «ما يجلسكم هنا؟ تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء؟ أما والله ما مجالسهم بمجالس الأبرار،

تفرقوا فرق الله بين أرواحكم وأجسادكم،، قد شمرتم ثيابكم، وجززتم شعوركم، فضحتم القراء فضحكم الله، أما والله لو زهدتم فيما عندهم، لرغبوا فيما عندكم، لكنكم رغبتم فيما عندهم، فزهدوا فيما عندكم».

**صوت الحق:**

وكان الحسن صوت الحق الذي لا يلين، لا يسكت عن إنكار منكر، ولا تمنعه منه هيبة أمير، ولا بطش ملك، وكان حينا يعرض تعريضا، وحينا يصرح تصريحا في تعريضه بالأمراء وترفهم وسرفهم.

راح يصف رسول الله ﷺ معطيا الأمراء والمسؤولين درسا حيا من حياة خاتم الأنبياء يقول: «ما كان يُغدى عليه بالجفاف «الموائد» ولا يُراح، ولا تُغلق دونه الأبواب، ولا تقوم دونه الحجاب، وكان يجلس على الأرض ويوضع طعامه على الأرض، ويلبس الغليظ، ويركب الحمار»، ثم قال: «ما أكثر الراغبين عن سنة نبي الله، وما أكثر التاركين لها».

ثم راح يعرض بعلماء السوء الذين يفتون كل حاكم بما يرضيه فقال: «ثم إن علوجا فسقة، قد أضلهم ربي ومقتهم، زعموا أن لا بأس عليهم فيما أكلوا وشربوا، وشادوا وزخرفوا، يقولون: من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، ويذهبون بها إلى غير ما ذهب الله بها إليه».

حدث أن عمر بن هبيرة لما ولي العراق، أرسل إلى الحسن والشعبي وابن سيرين، والثلاثة من أعلام التابعين، وأئمة المسلمين، فقال لهم: «إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إلي في أشياء، إن أطعته فيها أغضبت الله، وإن عصيته لم آمن بطشه وتغضبه، فهل ترون لي في متابعتي إياه فرجا»، فتكلم الشعبي وابن سيرين كلاما فيه تقية ومداراة، والحسن ساكت; قال له: «ما تقول أنت يا أبا سعيد؟».

قال: «أقول يا عمر بن هبيرة؛ يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ، فيخرجك من سعة قهرك إلى ضيق قبرك يا عمر بن هبيرة إن تتق الله

يعصمك من يزيد بن عبدالملك، وإن تطع يزيد لا يعصمك من الله. يا بن هبيرة لا تأمن أن ينظر إليك الله على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك، نظر مقت، فيغلق باب المغفرة دونك، يا عمر بن هبيرة: لقد أدركت ناسا من صدر هذه الأمة كانوا والله على الدنيا وهي مقبلة، أشد أدبرا من إقبالكم عليها وهي مدبرة، يا عمر ابن هبيرة إن تكن مع الله في طاعته يرد عنك كيد يزيد بن عبد الملك، وإن تكن مع يزيد بن عبد الملك في معاصيه وكلك الله إليه»، فبكى عمر حتى انتلت لحيته، وزاد في إكرامه عن الشعبي وابن سيرين.

## في وجه الحجاج:

كان «الحجاج بن يوسف» الثقفي حاكمٌ غليظ القلب، جبارًا متكبرًا، ولم يكن في العراق والمشرق لسان يستطيع أن يقول الحق عاليا في وجه الحجاج سوى «الحسن البصرى»، الذى كان ينتقده بشدة، وسلمه الله من الحجاج بإخلاصه وابتغائه وجه الله وحده.

بنى الحجاج دارا بواسط، وأحضر الحسن ليراها، فلما دخلها قال: «الحمد لله، إن الملوك ليرون لأنفسهم عزا، وإنا لنرى فيهم كل يوم عبرا، يعمد أحدهم إلى قصر فيشيده، وفي فرش فينجده، وإلى ملابس ومراكب فيحسنها، ثم يحف به ذباب طمع وفراش نار وأصحاب سوء، فيقول: انظروا ما صنعت، فقد رأينا أيها المغرور، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين، أما أهل السماوات فقد مقتوك، وأما أهل الأرض فقد لعنوك، بنيت دار الفناء وخربت دار البقاء، وغررت في دار الغرور، لتذل في دار الحبور».

ثم خرج وهو يقول: «إن الله سبحانه أخذ عهده على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه».

وبلغ الحجاج ما قال. فاشتد غضبه، وجمع أهل الشام، وقال: «أيشتمني عبد من عبيد أهل البصرة وأنتم حضور فلا تنكرون»، ثم أمر بإحضاره، فجاء وهو يحرك

شفتيه بما لم يسمع حتى دخل على الحجاج، فقال له الحجاج: «هاهنا اجلس»، فأجلسه قريبا منه، وقال: «ما تقول في علي وعثمان؟».

قال: «أقول قول من هو خير مني عند من هو شر منك، قال: قال موسى لفرعون حين سأله: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه، الآيتان: ٥١-٥٢]، علم علي وعثمان عند الله، قال الحجاج: أنت سيد العلماء يا أبا سعيد، ودعا بطيب وبلل به لحيته».

فلما خرج «الحسن البصري» تبعه الحاجب فقال له: ما الذي كنت قلت حين دخلت عليه؟ قال: قلت: «يا عدتي عند كربتي، ويا صاحبي عند شدتي، ويا ولي نعمتي، ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ارزقني مودته، واصرف عني آذاه ففعل ربي عز وجل».

**نعم المؤدب:**

وانتقد البصري الحجاج يوما وبلغه الانتقاد، وطلبه فلم يذهب إليه واختفى منه، فلما رآه قال: أنت القائل ما بلغني عنك؟ قال: وما بلغك عني؟ قال: قولك: اتخذوا كتاب الله دغلا، وعباد الله خولا -والمقصود: أدخلتم في كتاب الله ما يفسده ويخالفه، واستعبدتم الناس- ومال الله دولا، يأخذون من غضب الله، وينفقون في سخط الله، والحساب عند البيدر-يوم الحساب- قال: نعم، قال: وتكنى بذلك عنا، قال: نعم قال: ولم قلته ويلك؟ قال: لما أخذ الله ميثاق الفقهاء في الأزمنة كلها ليبيننه ولا يكتمونه.

ثم قال له: كم بينك أيها الأمير وبين آدم من أب؟ قال: كثير قال: أين هم؟ فأطرق الحجاج ساعة مفكرا، ثم قال: يا جارية.. الغالية «الطيب»، فخرجت بها، فقال: ضمخوا رأس الشيخ ولحيته بالطيب، ثم قال: انصرف إلى أصحابك فنعم المؤدب أنت.

الحاكم العادل الذي يرعى الله في رعيته، هو الذي يطلب النصيحة والاستشارة

من العلماء المخلصين، ويبعد عنه كل منافق ومدع، ولقد كان «الحسن البصري» رضي الله عنه صاحب عاطفة قوية وروح ملتهبة، وكان من كبار المخلصين، بليغ اللسان، قوي الإيمان ، وكان من أقرب العلماء إلى قلب وعقل الخليفة الراشد «عمر ابن عبدالعزيز». لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى «الحسن البصري» أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل، فكتب البصري يقول:

«الإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغارا، ويعلمهم كبارا، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم في مماته.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرها ووضعته كرها، وربته طفلا، تسهر بسهره وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى: وخازن المساكين، يربي صغيرهم ويمون كبيرهم، وهو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويُسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم. فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك إلى الله، كعبد ائتمنه سيده، فاستحفظه ماله وعياله، فبدد المال وشرد العيال، فأفقر أهله وفرق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين: أن الله أنزل الحدود ليزدجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها، وإن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟

واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر، واعلم أن لك منزلا غير منزلك الذي أنت فيه يطول فيه ثواؤك ويفارقك أحباؤك، وتركوك في قعره وحيدا فريدا فتزود له، واذكر إذا بُعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور، فالأسرار ظاهرة والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة.

لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين علي المستضعفين فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالا وأثقالا مع أثقالك، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بذهاب طيباتك في آخرتك، ولا تنظر إلي قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غدا وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي الله في مجمع الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحي القيوم».

## الأدوية الكريهة:

إني يا أمير المؤمنين لم أملك شفقة ولا نصحا، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه، يسقية الأدوية الكريهة، لما يرجوه له من العافية والصحة، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته».

وكتب «عمر بن عبد العزيز» رضي الله عنه إلى «الحسن البصري»: عظني فكتب إليه الحسن:

يا أمير المؤمنين، كن للمثل من المسلمين أخا، وللكبير ابنا، وللصغير أبا، وعاقب كل واحد منهم بذنبه على قدر جسمه، ولا تضربن لغضبك سوطا واحدا، فتدخل النار(*).

وذات مرة كتب أمير المؤمنين عمربن عبدالعزيز رضي الله عنه إلى فقهاء العراق أن يأتوه، فاعتل الحسن - أصيب بفتق في بطنه فكتب إليه معتذرا ناصحا يقول: يا أمير المؤمنين، إن استقمت استقاموا، وإن ملت مالوا، يا أمير المؤمنين، لو أن لك عمر نوح، وسلطان سليمان، ويقين إبراهيم، وحكمة لقمان؟ ولو نلت ذلك لم يكن لي بد من أن أشرب بكأس الأولين.

## أمان كاذبة

وسط زخارف الدنيا ومظاهر الحكم، يحتاج الحاكم إلى التذكير حتى لا يغتر

(*) أحمد رضوان أبو الخير، «من مواقف العلماء»، دار المنار، ١٩٩٦، ص ١٠٨-١١٠.

بالدنيا، وهنا تأتي أهمية وجود الناصح والمستشار الذي يجرؤ على توجيه النصح لوجه الله، وقول الحق لا يخشى في الله لومة لائم، وهكذا كان «الحسن البصري».

كتب الحسن إلى عمر بن عبدالعزيز يعظه ويحذره من الدنيا:

«يا أمير المؤمنين، الدنيا دار ظعن-بمعنى انتقال- وليست بدار إقامة على حال، وإنما أُنزل إليها آدم عقوبة، فأحذرها، فإن الراغب فيها تارك، والغني فيها فقير، والسعيد من أهلها من لم يتعرض لها، إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق وجدها تذل من أعزها وتفرق من جمعها، فهي كالسم يأكله من لا يعرفه، ويرغب فيه من يجهله، وفيه والله حتفه».

فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جراحه يحتمي قليلا مخافة ما يكره طويلا، الصبر على لأوائها أيسر من احتمال بلائها، واللبيب من حذرها ولم يغتر بزينتها، فإنها غدارة ختالة خداعة، قد تعرضت بآمالها وتزينت لخطبها، فهي كالعروس العيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهة، وهي والذي بعث محمداً بالحق لأزواجها قاتلة.

فاتق يا أمير المؤمنين صرعتها، واحذر عثرتها، فالرخاء فيها موصول بالشدة والبلاء، والبقاء مؤدى إلى الهلكة والفناء.

واعلم يا أمير المؤمنين أن أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد وتاركها موفق والمتمسك بها هالك غرق، والفطن اللبيب من خاف ما خوفه الله وحذر ما حذر، وقدر من دار الفناء إلى دار البقاء، فعند الموت يأتيه اليقين.

الدنيا يا أمير المؤمنين دار عقوبة، لها يجمع من لا عقل له، وبها يغتر من لا علم عنده، والحاذق اللبيب من كان فيها كالمداوي جراحه، يصبر على مرارة الداء لما يرجوه من العافية ويخاف سوء العاقبة.

والدنيا وايم الله يا أمير المؤمنين حلم، والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت،

والعباد في أضغاث أحلام، وإنى قائل لك يا أمير المؤمنين ما قال الحكيم:

**فإن تنج منها تنج من ذى عظيمة وإلا فإنى لا أخالك ناجيا**

ولما وصل كتابه إلى عمر، بكى وانتحب حتى أشفق عليه من كان عنده وقال: رحم الله الحسن، فإنه لا يزال يوقذنا من الرقدة، وينبهنا من الغفلة، والله هو من مشفق ما أنصحه، وواعظ ما أصدقه وأفصحه.

## ما أروع الناصح:

ما أروع الناصح وما أروع الحاكم وما أعدله، بهما تنعدل كفتا الميزان ويسود العدل. بمثل هؤلاء العلماء أقام «عمر بن عبد العزيز» دولته التي لم تعرف الظلم، وعاش فيها الناس في أمن وسلام، واختفى فيها الفقر والحرمان وعلت راية الحق. وما أحوجنا إلى حاكم من أمثال عمر، وعالم من نوع وتقوى وورع «الحسن البصرى»، حتى ينصلح حالنا الذى وصل إلى الدرك الأسفل من الهوان.

كان البصرى شجاعا في الجهر بالحق، تنبعث شجاعته من نفس امتلأت بجلال الله وعظمته، فهانت في نظرها وجوه الخلق ومظاهر الدنيا، وانطلقت منها الكلمة قوية مدوية مجلجلة.

دخل الحسن البصرى على «النضر بن عمرو»- وكان واليا على البصرة، فقال:

أيها الأمير أيدك الله، إن أخاك من نصحك في دينك وبصرك بعيوبك وهداك إلى مراشدك، وإن عدوك من غرك ومناك.

«أيها الأمير، اتق الله، فإنك أصبحت مخالفا للقوم في الهدي والسيرة، والعلانية والسريرة، وأنت مع ذلك تتمنى الأماني، وترجح في طلب العذر، والناس أصلحك الله طالبان، فطالب دنيا وطالب آخرة، وايم الله لقد أدرك طالب الآخرة واستراح، وتعب الآخر واخترم - أى تقطع وفنى-

فاحذر أيها الأمير أن تشقى بطلب الفاني وترك الباقي فتكون من النادمين،

واعلم أن حكيما قال: أين الملوك التي عن حظها غفلت حتى سقاها بكأس الموت ساقيها؟

نعوذ بالله من الحور بعد الكور، ومن النقص بعد الزيادة، ومن الضلالة بعد الهدى، لقد جاء أيها الأمير عن بعض الصالحين أنه كان يقول: كفى بالمرء خيانة أن يكون للخونة أمينا، وعلى أعمالهم معينا».

obeikandl.com